٤٩ ـ المصريون المحدثون

شمـــائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الانجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل الرابع عشر — الصناعات

مياه الآبار في القاهرة مشربة باللوحة ، فيجلب السقاءون الماء من النيل للسكان متعيشين من هذه المهنة . وكذلك يجلبون الماء من الخليج الذي يشق العاصمة أثناء الفيضان ، أو بالحري مدة الشهور الأربعة التي تعقب فتح هذا الخليج . ويجلبونه من النيل في غير ذلك الوقت ، وهم ينقلون الماء في مزادات من الجلد على الجمال والحمير ، وقد يحملونه على ظهورهم في قرب صغيرة لمسافة قريبة (أنظر شكل رقم ٥٧) ويطلق على المزادة التي يحملها الجمل لفظ « رِىْ » والري زقان واسمان من جلد البقر . ويسمى ما يحمله الحمار « قربة » وتكون من جلد الماعز . ويحمل السقاء كذلك قربة من جلد الماعز إذا لم يملك حماراً . ويسع الري ثلاث قرب أو أربعاً . ويصيح السقاء عادة : (يعوض الله) فيدل هذا الهتاف على مروره . ويكاد أجر السقاء على القربة التي يحملها ميلاً ونصف ميل أو ميلين ، لا يتجاوز أكثر من مليمين

(شكل ٥٧)

ويوجد أيضاً سقاءون يزودون المارة بالماء . ويسمى بعضهم (سقا شربة) (شكل ٥٨) ، ويحمل هؤلاء قربة ذات أنبوبة نحاسية طويلة ويصبون الماء للظمآن في طاس نحاسي أو قلة من

أن يطلق ١٢٠ طلقة في الثانية من ثمانية مدافع رشاشة مثبتة في جناحي الطائرة . وهذه المقدرة الفائقة على إطلاق النار من مستلزمات سرعة الطاردة التي لا تمكن المدفعي من أن يبقى فوق هدفه أكثر من ثانية أو ثانيتين في كل مرة يزوره فيها . والمدافع موضوعة بحيث تلتقي خطوط نيرانها على مدى بضع مئات من الأقدام أمام الطائرة . وقد اخترع سلاح الطيران البريطاني « طابية » تركب على القاذفة وبها أربعة مدافع أو أكثر تدور بدورانها وهذا يمكّن المدافع من أن تطلق نيرانها في أي اتجاه . وهذه الطوابي توجد على ذنب القاذفة وجسمها ومقدمتها . وتستعمل هذه المدافع كلها أثناء القتال رصاصاً يترك وراءه أثراً . فقدمة الرصاصة ملأى بمركب فسفوري فإذا انطلقت في الجو تركت أثراً واضحاً من الدخان في النهار أو من النار في الليل . فإذا كان بين كل خمس رصاصات واحدة من ذوات الأثر أمكن للعين أن ترى وتتبع خط الضرب . ولا يخفى أن رؤية الإنسان أين يضرب من الأهمية بمكان عظيم وبخاصة في المدفعية الجوية الحديثة حيث سرعة عمليات الهجوم والدفاع عظيمة بحيث يكاد يكون من المستحيل تتبع الهدف في البقعة التي يحددها المنظار

أصديق أم عدو ؟

لكل طائرة علامة أو أكثر للتعرف عليها إن كانت صديقة . وهي غالباً ضوء صغير في الذنب والقاع ، يمكن أن يصحبه مفتاح تلغرافي بجانب القائد . وتعطى علامات التعارف هذه للطيارين جميعاً في كل ليلة لتكون بمثابة كلمة المرور بين الطائرات وبعضها أو بين الطائرات وبطاريات المدافع المضادة . فقد يرى قائد في سلاح الجو البريطاني يقوم بأعمال الدورية مثلاً إشارة غريبة في طائرة أخرى مرت به قد تكون معادية . وعندئذ يُضيء بإشارة التعارف فإذا رد عليه الآخر بالإشارة المتفق عليها تابع سيره ، وإذا لم تكن الإشارة بما يتوقعه تحسس توّا زرّ مدافعه الرشاشة .

عبد المنعم محمد الزيادي
معهد الصحافة بالجامعة الأمريكية

الفخار . وهناك طبقة كثيرة العدد تمتهن الحرفة نفسها ويسمى الواحد منها (حَمَليا) (شكل ٥٩) وأغلب هؤلاء دراويش من الرفاعية أو البيومية ، وهم معفون من ضريبة الفردة . ويحمل الحلى على ظهره إبريقاً من فخار رمادى يبرد الماء، ويحمل أحياناً قلة من الماء المعطر بماء الزهر القطر من زهر النارنج ، ليقدمه إلى أفضل عملائه . وكثيراً ما يضع فى فوهة الأبريق غصناً من النارنج. ويتناول الحلى من أفراد الطبقتين العليا والوسطى قطعة فضة إلى خمس فضة .

(شكل ٥٨) سقا شربة

ولا يتناول من الفقراء شيئاً أو يتناول منهم قطعة خبز أو أى طعام آخر يضعه فى جراب يعلقه على جانبه . ويصادف المرء كثيراً من الحمليين وبعض السقائين فى ساحات الحفلات الدينية ، كالموالد

(شكل ٥٩) حلى

وغيرها التى تقام في القاهرة وضواحيها . وكثيراً ما ينفحهم زائرو قبور الأولياء نقوداً فى مناسبات كهذه ليوزعوا الماء على الراغبين من المارة . وتسمى هذه الصدقة (تسبيل) ، وتكون إكراماً للولى ، أو فى مناسبات أخرى غير الموالد . ويسمح لهؤلاء السقائين فى هذه الأحوال أن يملأوا الأبريق أو القربة من « سبيل » عام ، لأنهم لا يتناولون شيئاً من المارة . وهم ينشدون لهذه المناسبة لحناً قصيراً ، داعين الظمآن ليتناول من هذه الصدقة المقدمة باسم الله فيقولون : (سبيل الله ياعطشان) ويدعون لمن قدم الإحسان أن تكون الجنة والمغفرة من نصيبه فيقولون (الجنة والمغفرة لك يا صاحب السبيل)

(شكل ٦٠) عرقسوسى

ويوجد آخرون ، تماثل مهنتهم مهنة الحلى . ومن هؤلاء ، بائع العرقسوس المذكور فى فصل سابق . ويحمل العرقسوسى جرة حمراء من الفخار على جانبه الأيسر ويربطها بسير من جلد أو غيره ويسندها بيده اليسرى (شكل ٦٠) كما يحشو فوهة الجرة بليف النخل ويحمل طاسين من النحاس أو قدحين من الصينى أو أكثر يقرعهما معاً . ويتجول كثير من بائعى الشراب بالطريقة نفسها . ويحمل بائع الشراب عادة وعاء « الشيشة » الزجاجى ملآن بمنقوع الزبيب فى يده اليسرى ، وأبريقاً كبيراً من القصدير أو النحاس الأحمر ، وقللاً زجاجية فى يده اليمنى . ويحمل بعضهم صينية مستديرة من النحاس الأحمر المبيض وعليها قلل ملأى من « التين المبلول » أو « البلح المبلول » ، « وسطلة » نحاسية أو طاسا من الفخار الصينى . ويباع السحلب أيضاً بالطريقة نفسها ، والسوبيا كذلك ، وهى تصنع من لب عبد اللاوى يبل ويدق ثم ينقع فى الماء ثم يصفى ويحلى بالسكر ، وقد تصنع من الأرز بدلاً من اللب . وتحمل السوبيا فى أوعية كأوعية الزبيب ؛ غير أن الأكواب هنا توضع فى وعاء من القصدير يشده البائع بحزام إلى وسطه .

ذكرت قبلاً أن كثيراً من فقراء القاهرة يتعيشون من تنظيف الشبك . ويحمل « السلكاتى » أى منظف الشبك سلوكاً طويلة لهذا الغرض يضمها فى عصى مجوفة ثلاث أو أربع

أو فى أنابيب من القصدير، يشدها معاً ويعلقها على كتفه (شكل ٦١) ويعلق مع العصى أو الأنابيب حقيبة صغيرة من الجلد بها ألياف من القنب يلفها أعلى السلك لتنظيف الشبك . ولا يتناول المسلكاتى على تنظيف الشبك الواحد أكثر من نصف فضة

(شكل ٦١) مسلكاتى

يتعيش الكثير من الطبقة السفلى رجالاً ونساء ، فى القاهرة وغيرها من مدن مصر ، من التسول . والكثير من هؤلاء كما هو المتوقع ، دجالون كريهون ، فبعضهم يشق مظهره على المرء ولكنه يجمع أموالاً وافرة . وقد حدث منذ شهور قليلة حادث من هذا النوع شاع أمره فى القاهرة . ذلك أنه كان هناك فلاح ضرير تقوده ابنته فى شوارع القاهرة وهما يكادان يسيران عاريين دائماً . وقد تعود هذا الفلاح أن يدعو يومياً إلى منزله سائلاً تركياً ضريراً ، فيتناول العشاء معه . وفى ذات ليلة غاب الفلاح عن منزله ، ولكن ابنته أعدت العشاء للصديق التركى الذى جلس يأكل وحده . وحدث أثناء ذلك أن مد يده إلى جانبه فوقعت على جرة ملآنة نقوداً . فلم يتردد فى حملها وهو منصرف . وكان فى الجرة مائة كيس وعشرة من قطع الخيرية ، وهي قطع صغيرة ذات تسعة قروش ، أى ما يساوى حينئذ أكثر من خمسمائة وخمسين جنيهاً . فذهب المجنى عليه إلى القلعة يطلب إنصافه ، فاستعاد ماله ما عدا أربعين خيرية كان اللص قد أنفقها ، وقد حرم التسول على الفلاح بعد ذلك . وكثيراً ما يشاهد المرء فى القاهرة الأطفال عراة تماماً . وقد رأيت كثيراً فتيات بين سن الأثنى عشر والعشرين يتسولن فى الطرق دون أن يسترهن غير قطعة رثة حول الكشح وقلما يتأثر هؤلاء من برد الشتاء أو حر الصيف لتعودهم ذلك من الطفولة . ويستطيع الرجال أن يناموا فى بعض المساجد . وليست حال المتسولين ، من وجوه أخرى ، سيئة جداً كما قد يرى الأجنبي من مظهرهم . ويكاد المتسولون بلا ريب أن يحصلوا على طعام أو نقود تكفى لسد حاجاتهم الضرورية ، وذلك نتيجة لميل المصريين إلى الإحسان ، وتعود التجار تناول الطعام فى دكاكينهم وإعطاء السائلين شيئاً منه . وهناك متسولون ينفقون جانباً كبيراً مما يجمعونه صباحاً فى التمتع بتدخين الحشيش ليلاً فيتخيلون أنهم أسعد الناس

ولا تخرج صيحات المتسولين فى القاهرة عن دعاء الله . ومن أكثر الأدعية شيوعاً قولهم : (يامحسن يارب !) (لله يامحسنين) (أنا طالب من عند ربى رغيف عيش) (يا مانع كريم يارب) (أنا ضيف الله والنبي) . وقولهم مساء : (عشاى عليك يارب) وفى ليلة الجمعة : (ليلة الجمعة الفضيلة) وفى يوم الجمعة : (يوم الجمعة الفضيل) . وكان هناك متسول ، تعود أن يمر بدارى يومياً ، يقول : (توكل على الله ! لا إله إلا الله) وإنى أسمع الآن متسولة تصيح : (عشاى عليك يارب . من إيدى مؤمن كريم موحد بالله . يا أسيادى !) . ويرد الناس المتسولين عادة ، إذ أنهم كثيرون بحيث لا يمكن المرء أن يعطى كل من يسأله ، بقولهم : (الله يساعدك) . (الله يرزق) . (الله يعطيك) . (الله يعينك) . ولا يرضى السائل برفض لا يتضمن ما سبق ذكره أو ما يماثله . ومن المعتاد أن يرى المرء فى أشد الشوارع ازدحاماً سائلاً يطلب ثمن رغيف عيش يمسكه فى يده بينما يتبعه بائع الخبز . ويتجول بعض السائلين ولا سيما الدراويش ، وهم ينشدون قصائد فى مدح النبي صلعم ، أو يدقون الصنوج أو طبلة صغيرة . ويتجول الدراويش بين قرى الريف للتسول . وقد رأيتهم يعتلون الجياد . كما شاهدت أخيراً أحدهم يتنقل بين الأكواخ على جواد يستجدى الخبز ويصحبه رجلان يحمل كل منهما بيرقاً ، وثالث يقرع طبلاً

(يتبع) عبد الله نور